النقد والآخر

د. عبد النبي اصطيف*

النقد الأدبي إنشاء discourse عن إنشاء آخر هو الأدب أو سيد الفنون الجميلة. إنه إنشاء موضوعه الفن -الأدب. وعلى الرغم من اشتراكه مع موضوعه باستخدام أداة واحدة هي اللغة الطبيعية، الإنسانية ، فربما كان من أهم ما يميزه عن هذا الموضوع أنه ضرب من المعرفة المنظّمة أو التحصيل المنظّم الناجمين عن مواجهة تجربة الإبداع الأدبي، المتمثلة بنص من النصوص الأدبية. ذلك أن المرء في مواجهته للأدب، يحاول أن يستوعب التجربة الجمالية التي ينطوي عليها هذا الفن الجميل، من خلال وضعها في أطر تنظمها وتيسّر تناولها من وجوهها المختلفة. وهذه الأطر مستمدة في الغالب من المعرفة المتراكمة عبر العصور والتي طورتها الإنسانية للتعامل مع الظاهرة الأدبية بغاية حفظها ونقلها من جيل إلى جيل لأنها تمثل جزءاً مهماً من الموروث الثقافي الذي يكفل وحده الجماعة وتماسكها وبقاءها.

والناظر في طبيعة الممارسة النقدية يجد أنها فعالية ذهنية mental activity واعية conscious وقصديةintentional تقوم على مواجهة النص الأدبي بغرض شرحه وتحليله وتفسيره ومقارنته بغيره والحكم عليه، مثلما تقوم على التفكير في طبيعة الأدب ووظيفته وحدوده. ولكنها فعالية إنسانية يمارسها إنسان، ويتوجه بها نحو إنسان آخر مهما كانت صفته، ويستخدم فيها أداة إنسانية متميزة هي اللغة الطبيعية natural language، يسعى من خلالها

* أديب سوري، جامعة دمشق.

إلى الإشارة إلى "هامش الأفضل" في الحياة الإنسانية، وحفز الإنسان على بلوغه.

ولأن النقد الأدبي فعالية إنسانية، فإنه يخضع للشروط التي تحكم حياة من يقوم به، وبالتالي يتعرض لتأثيرها على نحو مباشر وغير مباشر، ويعكس هذا التأثير بصور مختلفة، ليقدم في نهاية المطاف وجهة نظر ناقد تحدَّدت بهذه الشروط.

فالناقد إنسان من جنس معين (ونسوة اليوم يطالبن بنقد أدبي نسائي ومطالبتهن لها ما يسوغها في نظر الكثيرين)، وذو عمر معين (والعمر خبرة ونضج وتقدم في ميدان المعرفة والعلم)، له حياته النفسية والاجتماعية والاقتصادية الخاصة به، وله تكوينه الثقافي المركب إضافة إلى نشاطاته المتنوعة التي يقوم بها، وكذلك له وظائفه العديدة التي يمارسها في مجتمعه، وتوجهاته الفكرية والسياسية، وموقفه من الحياة والعالم؛ ولكل ذلك تأثيره في إنشائه النقدي الذي يفصح عن رأيه في الأدب والفن والحياة، أو يجسّد رؤيته للعالم World view. من هنا كان هامش الخلاف في وجهات النظر شيئاً ملازماً لطبيعة الممارسة النقدية السليمة القائمة على المعرفة المنظمة. والخلاف يُولّد السجال، والمناظرة، والنقاش، وغير ذلك مما هو في حقيقة الأمر حوار بين كائنين يعكس كل منهما شروطه الحياتية الخاصة به والتي تقدَّم ذكرها، من خلال إنشائه النقدي.

* * *

أ- 1 :

والمناظرة، والسجال الفكري، والنقد، والنقض، والمغايرة جميعها فعاليات إنسانية فكرية تقتضي استخدام قدرات المرء الذهنية على نحو منظم وواضح ودقيق. واستخدام هذه القدرات الفكرية ليس مسألة تحصيل حاصل، إذ لا يكفي وجود الاستعداد للقيام بها لديه حتى يفترض فيه توظيفها على نحو إيجابي بنّاء ومجدٍ. ذلك أنها جميعاً ملكات ومهارات تُكتسب اكتساباً، بمبادرة من الفرد حيناً، وبعناية دائبة ومستمدَّة ومنظمة ومدروسة من جانب المجتمعات المتقدِّمة في معظم الأحيان. ومعنى هذا أن الفرد، حتى لو امتلك الاستعداد لممارسة أي منها، فإنه بحاجة إلى أن يبادر لاكتساب مهارة أو ملكة القيام بها، وأن يجد في مجتمعه السبل ميسرة إلى عملية الاكتساب هذه.

أ ـ 2 :

وهـي فعاليـات اجتماعيـة تمـارس ضمن مؤسسات اجتماعية كالجامعة، والإذاعـــة، والتلفزيـــون، والصـــحافة المقـروءة، والكتـاب وغيرهـا، يقيمهـا المجتمع بغرض تحقيق أغراض ووظائف محددة أدبية وفوق أدبية. ومعنى هـذا أن عمليـة ممارسـة هـذه الفعاليـات تعـني المجتمـع بمقـدار مـا تعـني الفـرد، وأن المبادرة الفردية إلى ممارسة واحدة من هـــذه الفعاليــات لا تكفـــي وحـــدها لتحققهـا. ذلـك أنهـا تتطلـب الموافقـة الضـمنية أو الصـريحة مـن قبـل هـذه المؤسسـات علـى شـكل هـذه الممارسـة وإجراءاتهـــا وأعرافهـــا ونظمهـــا وافتراضـــاتها، ودع عنـــك تشـــجيعها ومباركتها أو حفزها وإثارتها في المقام الأول، أي أنها مرهونة بموافقة "الآخر" الجمعي أو الاجتماعي أو المؤسسي.

أ ـ 3 :

وهـي مـن جهـة ثالثـة تتصـل بـالآخر The Other. إنهـا تفـترض طرفـاً آخـر يقـوم المـرء بمناظرتـه، أو مسـاجلته، أو نقـد مـا ينتجـه، أو نقضـه، أو مغايرتـه. ومعنى هذا أن إيمان هذا الطرف الآخر بمشروعية هذه الفعاليات أولاً؛ وبجدوى ممارستها ضمن المؤسسات الاجتماعية المختلفـة ثانيـاً؛ وباسـتعداده النفسـي والفكـري والمـادي للـدخول فيهـا ثالثـاً؛ أمـور في غايـة الأهميـة. وربمـا كـان مـن نافلــة القــول الإشــارة إلى ضــرورة أن يكون هذا الذي يُناظَر، أو يُساجَل، أو يُنقَد، أو يُنقَض، أو يغَاير، قد قدّم مادة تحقّق الحد الأدنى من المستوى المؤهِّل لممارسته هـذه الفعاليات. ذلـك أن تـوافر هـذه الشـروط لا غنـى عنـه لأيـة ممارسـة مقنعة، وإلا تحّولت جميع هذه الفعاليات إلى مجرد أوهـام دون كيخوتيـه لا يعـدم المـرء أن يجـد صـوراً مسـلية منهـا في حياتنا المعاصرة.

أ ـ 4 :

وهي من جهة رابعة فعاليات أداتها اللغة الطبيعية التي تؤدى بها. ومعنى هذا أنها تقتضي لغة تصلح لأن تكون أداة لهذه الفعاليات الفكرية المعقدة. ذلك أن اللغة ليست أداة تعبير، أو وسيلة للتفاهم والتواصل فحسب، بل هي كذلك أداة للـــتفكير؛ والـــتفكير في المنـــاظرة والســجال والنقــد والــنقض والمغــايرة يتطلـب وجـود مصـطلح مشـترك يحقـق حداً أدنـى مـن المتابعـة لـدى المشاركين في هذه الفعاليات، وإلا غدت ممارستها نوعاً من الممارسات الفردية لجماعة من الصـم الـذين تعـوزهم اللغـة المشـتركة (ذلـــك أنـــه حتـــى الصـــم والـــبكم يســتخدمون هــذه الأيــام لغــة متطــورة مصقولة تتمتع بالحد الأدنى من وحدة المصطلح واتساقه).

أ- 5 :

وهي من جهة خامسة فعاليات لا تكون ذات جدوى ما لمْ تُمارَس ضمن مناخ صحي معافى، بحيث تغدو طبيعية جداً في المجتمع الذي تمارس فيه، بل ربما تحوّلت في بعض المجتمعات إلى تقاليد رفيعة لها أعرافها وتقاليدها ونظمها وقيمها وإجراءاتها ووظائفها، التي تكون موضع احترام المشاركين فيها والالتزام بها ضمناً وصراحة، وتكون مصدراً للمتعة والفائدة.

ب

في ضوء ما تقدم من حديث حول طبيعة هذه الفعاليات الفكرية (والحيوية جداً لأي مجتمع متقدّم حريص على ثقافته ماضياً وحاضراً ومستقبلاً) يستطيع المرء أن يدرك بسهولة أسباب هذا "الانحسار الخطير" الذي نشهده في ممارستها وفي دورها في حياتنا الثقافية المعاصرة.

ب- 1 :

فعلى الرغم من أن أحداً لا يجرؤ على الزعم بأن الفرد العربي لا يملك الاستعداد لممارسة هذه الفعاليات، أو أن العديد من العرب الأفراد لا يبادرون إلى الإفادة من استعداداتهم، ولا يكتسبون، كل بطريقته الخاصة، ملكات المناظرة، والسجال الفكري، والنقد، والنقض، والمغايرة، ومهاراتها، فإن المرء من جهة أخرى لا يستطيع أن يزعم أن المجتمع العربي الحديث (وهو حديث بالنوايا أكثر منه حديثاً بالفعل) يقوم بمحاولات منظمة ودائبة ومدروسة لإكساب هذه المهارات أو الملكات لأفراده، وحسبنا أن نتأمل حال المؤسسات التربوية والتعليمية والثقافية لنرى مقدار ما تفعله في سبيل إكساب العرب المعاصرين هذه الملكات والمهارات بحيث تغدو جزءاً أساسياً من حياتهم، أو تتحول إلى عادة من عاداتهم التي يمارسونها دون كبير جهد أو تكلف.

ب- 2 :

وإذا ما أحسنّا الظن بحجم المبادرة الفردية العربية لاكتساب هذه المهارات والملكات ولممارستها في المجتمع العربي الحديث فإننا لا نستطيع أن نغض الطرف عما تفعله المؤسسات العربية، التي يفترض فيها أن تحتضن هذه الفعاليات وتشجعها وتكافئ عليها، لتحجيم هذه المبادرة، أو للتقليل من جدواها، أو لإفراغها من محتواها، وبالتالي لتجريدها مما يمكن أن تؤديه من وظائف حيوية في المجتمع العربي الحديث، ليس على المستوى الثقافي وحده، وإنما على جميع المستويات، وربما كانت كفاءة هذه المؤسسات في إحباط هذه الفعاليات عائدة إلى القائمين عليها. ففي معظم الأحوال نجد

أن هـؤلاء أبعد ما يكونون عن الثقافة والفكـر وعوالِمهمـا ، وهـم في المواقـع التي يشغلونها نتيجة عوامل فوق ثقافية Extra-cultural ، وآخـر مـا يهمهـم في المؤسسـات الـتي يقومـون علـى إدارتهـا الثقافة أو العلم أو الأدب أو الفن. ومن المؤسـف أن تتحـول هـذه المؤسسـات في بعض الأقطار العربية، إن لم يكن في معظمها، إلى مؤسسات مقنّعة للعلاقات العامـة؛ معنيـة أساسـاً بتقـديم صـورة جذابة ومعقولة للنظام السياسي السـائد في المجتمـع العربـي القطـري، وخاصـة فيمـا يتصـل برعايتـه للثقافـة والفكـر والأدب والفن والعاملين فيها.

ب- 3 :

وإذا مـا غادرنـا المجتمـع العربـي الحديث ومؤسساته التي تسعى جهدها لتحجـيم هـذه المبـادرات والتقليـل مـن جدواها، وانتقلنا إلى الآخر The Other ، أو الطرف الذي يفترض أن يقوم المرء بمناظرته أو مساجلته؛ أو نقد نتاجه، أو نقضـه، أو مغايرتـه، فإننـا نجـد أول مـا نجد أن إيمان هذا الطرف، إلا في الأقل القليـل مـن الحـالات، بمشـروعية هـذه الفعاليات محدود جداً، لأنه في الغالب ينظر إليها على أنها فضول قد لا تحمد عقباه، بـل إنـه ربمـا لا يـرى فيهـا غـير الجانب الفردي البحت.

أمـا عـن جـدوى ممارسـة هـذه الفعاليـات فـإن إيمـان المشـاركين بهـا ربما كان أقل من إيمانهم بمشروعيّتها. فماذا يمكن أن يؤدي إليه نقاش ما، أو حوار ما، أو مناظرة ما، أو مساجلة ما في تغيير هـذا الواقـع الـذي نعيش فيـه؟ ذلك سؤال كثيراً ما نسمعه من مثقفي هذه الأيام. لقد غدا الفكر و الثقافة و العلم في حياتنا أشياء أقرب ما تكون إلى هامشها منها إلى لبّها وجوهرها، و أصبحت أشبه ما تكون بالمتاع أو الزينة أو الـترف الـذي نستحسـن وجـوده لـيس إلا، و لا نسعى إلى أن يؤدي دوراً أكبر في تشكيل هذا الوجود.

وأمـا عـن اسـتعداد هـذا الآخـر النفسـي والفكـري والمـادي فـأمر لا يتيسر في جميع المشتركين في دور هذا الطـرف الآخـر. ذلـك أن طبيعـة الحيـاة العربية الحديثة لا تشجع استعداداً من هـذا النـوع بأيـة صـورة مـن الصـور ولا تنميـه، بَلـهَ البحـث عنـه وإكسـابه لأفرادها.

وإذا ما انتقل المرء إلى مستوى ما يقدّم من مادة من قبل هذا الذي يفترض بـالمرء أن ينـاظره أو يسـاجله أو ينقـده، فإنـه يجـد أن العـرب المعاصـرين مـن الكتـاب لا يأخـذون أنفسـهم بالجـدّ والجهـد، بـل المشـقة الـتي تتطلّبهـا الكتابة الحديثة. إذ سرعان ما يطمئن

بعض الكتاب إلى مكانتهم التي كسبوها بنتاجهم المبكر، ويظنون أن بريق أسمائهم يشفع لهم في كل ما يقدمونه من مادة. وقد كتب فيهم مندور في أواخر النصف الأول من القرن الماضي فوصفهم بأنهم قد وقعوا "فريسة لنجاحهم نفسه" "فعقمت نفوسهم بالزهو، وفسدت أمانة عقولهم"، فهم "لا يأخذون أقلامهم بالجهد معتمدين على ما اكتسبوا من مجد وشهرة"، وأضاف:

"و كم لدينا من كتاب قد أصبحنا نحس أنهم لا يشقون في العناية بما يكتبون، ولا في التفكير فيه. لوثوقهم - فيما يظنون- من إقبال الجمهور عليهم، ولو كانت هذراً وسخافة. وأصحاب المطابع والمجلات يقبلون بلهفة ما يقدمون إليهم، إذ يضمنون من ورائه الرواج المادي بفضل حمق الجمهور في تعلقه بالأسماء، أكثر من تعلقه بقيمة ما يقرأ"*.

وعندما يكثر أمثال هؤلاء وتسود موادّهم المواد الأخرى، وتطرد عملتهم بعجرها وبجرها العملات الأخرى، تتدنى الرغبة في الدخول في أي حوار مع هذه المادة أو مع أصحابها، لأنه يكون عندئذ جعجعة لا تنتهي بطحين يسمن أو يغني من جوع.

ب- 4 :

والحوار لا يكون إلا بين من يتحدثون بلغة مشتركة ذات مصطلح يتمتع بالحد الأدنى من القبول لدى المشاركين في هذا الحوار. ومن المؤسف أن المؤسسات التربوية والتعليمية والثقافية والإعلامية العربية لا تسهم بشكل جاد في خلق لغة تساعد على الحوار والنقاش، ومن ثم يتعرض المشاركون في أي حوار إلى الوقوع في سوء فهم مادة الآخر، مثلما يكونون عرضة لسوء فهم ما يقدمونه من وجهة نظر. والطامة الكبرى هي المضي في السير، بل في التخبط، في نفق لا يلوح في آخره بصيص ضوء. وقد أشار بعضهم إلى هذا في ندوة (شاركت فيها في القرن الماضي عن "الترجمة والتعريب والمصطلح"، عقدها برنامج " كاتب وموقف" الذي تقدمه إذاعة دمشق) عندما قال إن العرب المحدثين يستمتعون كثيراً بإثارة القضايا، وإنهم غالباً لا ينتهون فيما يناقشونه إلى نتيجة واضحة. فقضايانا مفتوحة، إذا ما استعرنا مفهوم الناقد الإيطالي المعروف أومبرتو إكو Umberto Eco في النص المفتوح Open Text (بفهمنا الخاص بنا لهذا المصطلح) ولن يغلق ملف أي منها إلا عندما يفتح ملف آخر لها يوم الحساب.

---

* انظر د. محمد مندور، ***في الميزان الجديد***، دار النهضة، مصر، القاهرة، د. ت، ص ص 9-10.

ب ـ 5 :

وأخيراً فإن المناخ العام لا يساعد كثيراً على المناظرة والسجال الفكري والنقد والنقض. ذلك أن هذه الفعاليات تنطلق أساساً من الحس الاجتماعي النامي، وهو أمر نفتقده في المجتمع العربي الحديث؛ والمشارك فيها إنما يستمد مشروعية ممارسته لها من هذا الحس الاجتماعي، ويستند إليه في عرضه لوجهة نظره في أية قضية يتناولها.

وفوق هذا فإن قلة من المشاركين في هذه الفعاليات تراعي آدابها وأعرافها وتقاليدها ونظمها وقيمها، أو تؤمن بها. وكثيراً ما ينتهي سجال ما بـ "الضرب تحت الحزام" وتناول أمور شخصية لا علاقة لها ولا مساس بالقضية موضع النظر، وقد يقوم بعض المشاركين باستعداء المجتمع ومؤسساته على "الآخر" الذي يناظره، وربما كان ذلك ناجماً عن تعصبه لوجهة نظره التي يعتقد أنها ينبغي أن تسود لمجرد أنه صاحبها، والعبرة بالنسبة له في القائل لا فيما يقال، لأنه أساساً غير مؤمن بالتعددية والتنوع والاختلاف، نتيجة تربيته التي تنمي فيه التمركز حول الذات وتنفره من تعددية كهذه، وتعمي بصيرته عما ينطوي عليه التنوع والاختلاف من غنى في الحياة الإنسانية.

ج

وبعد هذه الملاحظات المتصلة بطبيعة هذه الفعاليات الفكرية من جهة، وحالها في المجتمع العربي الحديث من جهة أخرى، ماذا يمكن للمرء أن يقترح من سبل لتنشيط روح المناظرة والحوار والنقد في حياتنا الثقافية، لكي نستعيد يقظتنا الذهنية ؟

عندما يُشخَّص الداء يمكن للمرء أن يتبين بسهولة الدواء، ويصبح تجرعه مسألة اختيار وإرادة وتقرير مصير.

على أي حال، الأمر ـ فيما يبدو لي ـ يقتضي إعادة نظر جذرية في المسألة الثقافية في الوطن العربي وخاصة فيما يتصل ببنى المؤسسات الثقافية والتربوية والتعليمية والإعلامية وما يسودها من علاقات وقيم ومعايير وما يحكمها من غايات وأهداف وما تسعى إلى أدائه من وظائف في المجتمع العربي الحديث. ولربما كان في هذه المشاركة، وفي غيرها، ما يشير إلى صوى عملية إعادة النظر الجذرية هذه. والمهم أن نتبع القول العمل، ممتثلين لقول الله تعالى : "وقل اعملوا" من جانب، ولقوله من جانب آخر: "كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون".